38

حروف

الهيئة العامة لقصور الثقافة

نصوص

مقاطع في حيّز العابر

يوسف ليمود

مقاطع فى حيز العابر

نصوص

يوسف ليمود



سلسلة
حروف

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• مقاطع فى حيز العابر
• يوسف ليمود
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2014م
• تصميم الغلاف:
د. خالد سرور
• الإعداد الفنى: وحدة التجهيزات
• رقم الإيداع: ٢٠٢٨٠/ ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-718-896-8
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

38

تعنى بنشر الأعمال الإبداعية
لمبدعى مصر المتحققين

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه فى المقام الأول.

مقاطع فى حيز العابر

طـريـق

عشرون عامًا.

عشر سنوات من الرسم متكومات في ركن الغرفة:

لفائف قماش، ورق، وألواح خشب؛

وعشر من التيه سابقات عليها.

تيه. ما أجمل اللفظ وأقسى المعنى.

هل الفن بحث عن الذات (طريق)؟ أم هو يبدأ بعد أن يجد الرسام الطريق؟

لا إجابة قاطعة في مجال كهذا على سؤال كهذا.

ربما في السديم يكمن سر الفن.

عشر سنواتٍ لفائفَ في ركن غرفة ليست أمرًا مدهشًا،
فالحياة متكوّرة في ركن من الكون منذ ملايين السنين.
لكنه يندهش لتبخّر سنوات التيه، ومن دون أثر مادي في
زاوية ما.
أثرها في الدماغ فقط،
كطبقة الدهن التي تراكمها أبخرة المطبخ على غبار
الرفوف.

ماذا لو أحرق لفائف السنين العشرة الأخيرة،
هل يضيع الأثر؟
هل يفقد الطريق؟

حلم

أعمق الأحلام لا تزوره إلا في أعمق النومات، في عمق التعب. هذا على الأقل ما رصده.

رأى السماء السوداء نجومها مضاعفة عشرات المرات وقريبة جدًّا، أو هو مرتفعًا جدًّا كان، لكنه لا يزال على الأرض.

أراد التأكد من أنها نفس السماء الدنيا فبحث بعينه عن "الأخوات السبع" فوجدهن صرن حشدًا يصعب عدّ نجماته

هي السماء ذاتها إذن، لكن الأخوات توالدن ربما! (في صغره حكت له أخته عن رجل طيب له سبع بنات احترق بهن البيت وهن نيام فصبر الرجل المكلوم وقال هذا أمر

الله فرفعهن الأخير نجومًا إلى السماء مكافأة للرجل على إيمانه)

فكر في حلمه، أن كم الحياة هشة. نجمة محترقة، أو شهاب ضال يصيب الأرض، سوف يمحو كل شيء في لحظة واحدة

فكر أيضًا أن الأنبياء الذين مروا على هذه الأرض لا بد أنهم قالوا كلماتهم من هذا الارتفاع

لكنه، في الحلم، سخر من النبوة والأنبياء

كان السواد أكبر من أي كلام. وكان الجمال مهيبًا، رغم الذيول المحترقة والشهب المرشوقة كالسهام في كل اتجاه.

أحـــد

"الأحد، غطاء ثقيل على غليان الدم". تريستان تزارا

لكن لي، ليس بالضرورة أن يكون الأحد غليانًا،

فصراصير الدم تتسلق مجاري الذاكرة في أيَّة لحظة في

أي يوم لتستحضر الحشرات والفراشات التي تورطَتُ

معها في تفصيلة إنسانيَّة ما

لا بأس!

تقول صديقتي الشاعرة اللبنانيّة سمر دياب:

"أقول لدود الذاكرة أنت الذاكرة".

فلينتحل الوقت أسماءً، ولتنتحل الذاكرة حشراتٍ كيفما اتفق:

أحد، اثنين، ثلاثاء... و"دوخيني يا لمونة".

لقــاء

على الرصيف، خارج السوبرماركت، أخذتني أقفاص الطماطم بحمرتها الرائعة (نادرًا ما أطبخ بها) فجأة أيقظني من لحظة الغياب هذه رجل تركي قصير غليظ ملتحٍ، اقترب وجهه من وجهي كقذيفة أصابت الهدف:

محمداني؟

بعفويّة أسرع من لمح البصر هززت رأسي "نعم"، فإذا به يحضنني بقوة بغبطة المؤمنين الذين وصلوا إلى باب الجنة وينتظرون أن ينفتح وهات يا بوس في التمثال الذي هو أنا :

كل بوسة نفثة هي خليط من مسك وثوم ولا أدري ماذا.

في هذا الاشتباك الربّاني حاولت أن أتصيد بؤبؤ عينه كي أحظى بلحظة وصل مع هذه البركة، غير أني لم أنجح.

كانت نظرته في مكان ما بعيد جدًا، وأدركت الخطأ:

كان هو أمام باب الجنة وارتاح لوجهي السمح جارًا له على الأرائك متكئون، أما أنا فكنت على الرصيف أمام قفص الطماطم!

أفهم نسبيَّة الزمن، لكني تساءلت إن كان المكان يمكن أيضا أن يكون نسبيًّا!

حيز

الأشجار على حواف المستطيل الأخضر حبلى بالصيف،
والمستجمون في اليوم تبعثر استرخاؤهم في المستطيل.
ذكّرني المنظر بلوحة جورج سورا (بعد ظهر يوم أحد في
جزيرة لاجراند جات.)
إنهم نفس البشر، نفس الحركات والإيماءات، نفس الغياب
في الأثير، لكن الحواشي والمفردات تغيرت:
القبعات التي في اللوحة اختفت من على رأس الواقع،
وجيبات النساء الطويلة أضحت بناطيل جينز أو جوارب
ملونة تمسك في أعالي الأفخاذ.
الحركة أسرع قليلاً ربما، والأصوات مطعّمة بثغاء

تكنولوجي، لكن البشر هم البشر.

أقل من مئة عام مسحت واقعا وكتبت آخر.

في لوحة سورا، الناس والشجر والعشب والماء، صاروا نقاطًا دقيقة كما لو اقترينا بعدسة زوم من حفنة رمل.

جالسا على مقعد بزجاجة جعة ولفائف من عجين الأرز محشوة بالخضر وأذيال الجمبري (لفائف الربيع اسمها) صنعتها يد فيتناميَّة (أحب مطبخ آسيا). بجانبي، في حقيبة الظهر، العدد الثاني من "جسد"، المجلة.

أنا مطوي في بعض صفحاتها كلماتٍ وأحرفًا، كما ناس سورا، نقاطًا سكنوا على سطح لوحته.

انتبهت إليّ جالسًا:

كنت جسمًا ممتصًا في حيز من أثير.

فــراغ

في لحظة ما، تميل الشمس في دماغ أحدهم فيتمدد ظله داخل الجمجمة وينتصب شبح السؤال: إلى أين؟

حين خرج جياكوميتي من السينما بعد ظهر يوم ما، قبض على جمجمة الواقع متمددًا فيها الفراغ كظل طويل، ولا صوت، رغم صخب الميدان، سوى صفير السكون.

هذه اللحظة بلورت عمل جياكوميتي، وهي مفتاح كل ما شكّلته يده المشرع بابه على أبديّة من فراغ.

كيف للجسم الذي هو حيز وامتلاء أن يكون فراغًا؟

كيف لنحات يعمل في الطين والحديد أن يجسّد بمادته الفراغ؟

وهل الفراغ المترامي في جنبات الجمجمة هو أصل السؤال: إلى أين؟

شفق

انتبه إلى نفسه غائبًا في رماديّ الغروب. ربما اللون الذي تزيده أشلاء الغيوم ثقلًا هو ما أيقظه.

كان جالسًا، رغم الرذاذ، في الباحة الخارجيَّة لمقهى في مدينة غريبة.

خلفه بأمتار، قطارات وسكك الحديد.

الصدفة وحدها دحرجت عجلته ليتوقف أمام، أو ليكون جزءًا من، هذا الديكور السينمائي:

الغروب الرمادي، سكة الحديد، وبلل الهواء.

الغروب في ذاكرته أحمر. شفق. هذا ما طبعته على شاشته السماء التي ولد تحتها.

الفجر أيضًا في ذاكرته شفق. إنه الوقت الذي خرج فيه من رحم أمه. حتى لو لم ير السماء لحظة نزوله (هذا أكيد لأن أمه ولدته تحت سقف)، فقداسة لحظة الولادة، كقداسة لحظة الموت، تخترق السُقُف والحُجُب.

الشفق يختصر خيط حياته المعلق بين لحظتيه.

لكنه الآن جالس في الرمادي، في مدينة غريبة، في يده كأس نبيذ، ينتظر قطارًا لم يقرر بعد في أي اتجاه يكون.

ربما الحياة شريط رمادي محصور بين أحمرين...

لوحة تجريديّة يعني.

عـابـر

تموّج في حلمه الوجه كما لو انعكس في ماء بئر. لكنه، حين صحا من نومه، لم يعرف من كان صاحبه ولا من أين جاء واختفى.

حديثه أيضًا (كان سلسًا رائقا كما لو صيغت حروفه من ذهب) لم يتذكر منه كلمة واحدة. حدس فقط أنه واحد من الوجوه النادر مرورها في الدنيا. تمر، لو مرت، خفيفة متخفية.

أنقى من نبي.

هم زاهدون حتى في حظ الأنبياء. فما بال وجه كهذا يطوف بحلم ويتكلم كنبي ثم يتلاشى مع كلماته في أثير الصحو.

أهي جماليَّة الزوال تتوهج مفرداتها في التبدد لا في الرسوخ، في العابر لا في المقيم؟

يعرف أن الجمال شيء لا يُمسك:
رمل بين أصابع.

ماذا لو تجمّد الرمل بين الأصابع،
هل يظل جميلا؟

صـــوت

أجراس الأبراج تلك، بدقاتها التي تقول الوقت،
في السنوات الأولى كان وقع رنينها على طبلة أذني إعلان غربة.

في سنوات لاحقة كان يفتح دماغي على بوابة التاريخ:
قرون منكسرة تحت الصليب، محارق بشر خرجوا على المرسوم، أقماع الصلَع في رؤوس رهبان العصور الوسطى، مجازر باسم السيد، عقود زواج تعساءَ ينجبون سلالات أتعس، طقوس دفن آلام أكثر ألمًا من آلام الرب، كتب صفراء وشموع واعترافات وترانيم وقدّاسات، سحر أسود وأوهام وعبث بلون التراب.

في مرحلة أخرى، كنت أضفي مسحة رومانسيَّة على ذاك الطنين:
شعراء يقصفون ويرعدون ويقيمون ولائم وهجهم على جناح سحابة أو تحت المطر، عاهرات وصلن إلى الروح ويرقصن على جرحهن، حزن كلب الوجود على ما لا يمكن التعبير عنه ...

الطنين الآن تستقبله طبلة سمعي كما هو: طنين.
لا تواريخ ولا رومانسيَّة ولا يحزنون.
مجرد صوت.

خليَّـة

هذه أمي تجلس الآن جنبي في برق لحظة دماغيَّة. ماتت منذ سنوات.

ماذا كنت أفعل لحظة موتها؟

عبثًا تحاول ذاكرتي العثور على خليَّة لحظتي لحظتها.

كنت في الهند، أبحث عن الحياة بينما هي تموت واسمي ملء فمها.

ربما كنت جالسًا على النهر أنظر الموتى يُحرقون، أو كنت في المتعة مع امرأة، أو في باص يقوده سكران يصعد ينزل التلال أو كنت نائمًا أو في مطعم... لن أعرف أبدًا.

قبل لحظة، تجسّدت أمي جنبي كما لو رجع الزمن عن المكان عشرين سنة.

يُخيّل إليّ أنها لم توجد يوما في الواقع بل في دماغي فقط.

خليَّة في المخ وخزها دبوس خفي فجسّدت صورة.

عـــدم

الشمس تغمر التراب وما فيه.

بين سجادة الغبار هذه والمصباح الساطع ذاك، ملايين الكيلومترات، أو بضع سنوات ضوء.

هذا يعني أن السجادة الترابيَّة، من زاوية ما أبعد من المصباح، تُرى كنقطة باهتة أو تكاد لا تُرى كلما توغلنا في البعد حد حسبانها خليَّة في العدم.

أنا أعيش في مدينة هي فتلة في نسيج السجادة، جالس الآن في غرفة، شريط من الشمس يضيء نصف وركي العاري، أرى انعكاسات المنظر على زجاج الكأس في يدي،

أسمع اسطوانة لحنجرة مبحوحة من آيسلندا (ماذا تفعل المغنية في هذه اللحظة)، أحاول أن أراني من زاوية خارج طوق المصباح:

إذا كانت السجادة التي تطير بي / بنا تبدو، من زاوية سحيقة البعد، خليَّة في العدم، فأين أنا منها أو ماذا أنا فيها؟

غريب، رغم هذا أعتقد أنني الكون.

ســـر

المطر انتهى في الشمس بعد أن وضّأ الأرض.

صلاة صامتة بين الأرض وشمسها.

صلاة التراب الغبار الغياب الزوال.

أصوات الراهن المتناسل من عظام الغابر.

ظهيرات الذهب تتلألأ فيها أوراق الموت.

الشجر واقف في صبر الحمير، بلا أحلام.

شيء من الديناصور هاجع في عيون العصافير اللاهثة.

ذائبة هي في بؤرةِ الآن.

لا يعنيها إن كانت يومًا ديناصورًا أو أنها، في عصر سحيق

لاحق، سوف تصير نملًا أو ذبابًا أو شجرًا.

عكس الشجر الصابر، لا صبر لدى العصافير.

التهام لحيظات عمرها البارق عملُها المقدس.

سرٌ بين هذه الشحارير والشجر،

كما بين الأرض وربّتها الشمس.

منـظـر

نهر صبغه بالرمادي الشفق. يحمل اللونَ المنعكس ويسير

إلى ليل البحر، أو إلى بحر الليل.

شجر متكوّر على ذاته كنوارس تقف على رجل واحدة.

الأفق شريط هامد كميّت.

مركب وحيد ساكن في عطلته (الأحد).

أيام شغله يحمل البعضَ من ضفة إلى أخرى.

في مركبٍ ذاتي يومًا، سوف أعبر إلى الضفة الأخرى.

ماذا عن المنظر هناك؟ اللون، البحر، الشجر، الليل؟

وهل الأفق هناك مثل الذي هنا:

شريط هامد كميت؟

ظهيـــرة

الشوارع تذوب في الهجير كالشمع.

ظلال الماشين بقعة دائخة تحت أرجلهم.

راكبًا دراجتي منتظرًا أخضر المرور.

في طرفة عين نزع الواقع ملابسه واتشح بمآزر عصور غبرت:

أسواق إغريقيَّة فينيق رومان سومر سدوم...

غاصت اللحظة وطفا ماضيها المعجون بالجهات والسلالات.

للحظةٍ كنت عاريا من المكان والزمن.

تحــول

نفخٌ من سحاب متوهج البياض في سماء تركوازيّة فاتحة.

نسيم، وشجر مطليّ بالشمس، ونهر من وجوه انحدرت

من كل جغرافيا الأرض.

تختلط اللغات في الهواء،

تتداخل الأجساد في الأثير،

يتجمد الشجر في الصور التذكاريّة،

يتبخر النهر في السحاب، في الزمن.

لوحة

ذهب إلى السوق يرى اللوحات في الدكاكين.

في الباحة، خرجت شمس نادرة السماء،

ذاب فيها منتشيًا بسجائره وعلبة البيرة.

انسكبت منه أو فيه المقاطع والأفكار واللغة.

نسي ما جاء من أجله وسكن في الشمس وظل المقاطع.

لماذا يسجن نفسه في غرفة تبرر جدرانَها بالفن؟

أليست الشمس والسماء وظلال العابرين واللغط والغياب

لوحات؟

بالونة

في أشيائه الكبرى هو أكثر الأشخاص انفتاحًا ومرحًا.
لكنه، في أصغر الأمور، يستحيل صندوقا معتمًا ينطوي على شراسة ضد نفسه ذاتها.

كلما كبُرت الأشياء، خرجت من حيز الذات إلى بالونة العالم،
وكلما صغُرت، انجذبت بكثافة انضغاطها لترسخ في الداخل.

المفارقة تكمن في أن خليَّة الداخل ترى بالونة العالم الضخمة من جلدها الخارجي ضئيلة، في حين تنظر نفسَها من قلب النواة هائلة

يومًا سوف تفقأ إبرة ثالمة نواة الخليَّة،

وتبقى بالونة العالم منفوخة بهواء العدم.

حـائـط

جالسًا في هامش السوق السنوي تذكّرتها. لحظةً ورأيتها أمامي، تمر بعرجٍ من وقع من على سلم، ربما.
يا لخلايا البصر الاستباقيَّة الغامضة.

قبل أربع سنوات، كان عريها ملتصقًا في عريي، همسها، مخاوفها التي تكهربها الأحلام، دفقها، جنون شبقها، توابل ألفاظها الإباحيَّة...

مذّاك، ومن دون أن أفهم، نصبت حائطًا بيننا كما الزجاج.

كأن شيئا انكسر.

إن فهمت هذا يومًا، لن أفهم كيف أو لماذا يحضر الطيف في الروح قبل الجسد في عين الواقع.

وماذا عن الحائط الزجاجي؟

قـطـار

البيوت مغلقة على عري أهلها. المدينة تحلم.

هذا الليل الدائر في سباته كطواحين الهواء.

عجلة سامسارا.

تهتز أوتار الحلم في الألم الأمل الوهم اللذة الدموع المخاوف.

يغوص الحلم، في الزمن بلا زمنه،

في الليل بكشافات ذاكرته.

يغوص،

كقطار خرجت عجلاته عن قضبانها إلى أرض رطبة.

يغوص بطيئًا حتى تسكت أنفاسه،

ويسكن في صمت الطين.

غبـــار

كان الوقت عصرًا حين تمغنط الميدان بروحٍ نوّمت كل من وما فيه:

الناس والبيوت والسيارات والطير والشجر...

خلع الجميع ثيابهم قطعةً قطعةً، ثم نزعوا شعورهم وكأنها باروكات، فجلودَهم فلحمَهم والأليافَ حتى صاروا هياكل عظمٍ شاحبة البياض.

المباني غاصت كوماتٍ في الأرض كأن أخاديدَ انشقّت من تحتها.

الشجر تجرّد من أوراقه، والطيور من ريشها وغشائها اللحمي.

السيارات وأعمدة الإنارة سال رصاصها وصفائحها إلى أكوام صدأ، وبدأ رقص الهياكل.

رقصوا، فرادى ومعًا. وسرعان ما اكتشفوا ألاّ جاذبيَّة للأرض من تحتهم، فتقافزوا بالرقص في الفراغ.

لم يك من صوت سوى حفيف كدوامات أوراق الخريف وخبْط العظام في العظام.

كلما اصطدمت الهياكل بعضها في البعض، تناثرت أطرافها وتطايرت في الجو.

امتلأ الفضاء بالجماجم والزنود وأقفاص الصدر والسيقان والضلوع والأمشاط والأصابع السابحة، كما الأوراق والغبار في الريح.

إطـــار

بالسبابتين والإبهام، عملت إطارًا أحبس فيه المنظر من ركن الحديقة بعين واحدة. لوحة بلا فرشاة:

المستوى الأول: جذع شجرة لحاؤها تقشّف بالرمادي.

المستوى الثاني: سجادة العشب عليها نثار بشر، هم أيّ بشر.

المستوى الثالث: صف من أشجار الربيع امتد كشريط جبلي تبرقش بالكهوف والتجاويف وتكلسات الزمن.

المستوى الرابع: سطح قوطي تآكلت قراميده، ساكن في شريط من سماء بيضاء هي المستوى الأخير الذي يشرب من حليبه المنظر.

فتحت أصابعي والعين، فتبدد المنظر في التفاصيل المحيطة.

جنـــازة

السماء مدهونة كما لو بدخان بركان قديم.

طيور سوداء كرؤوس السهام تنتشي بالرذاذ.

الأسطح تلمع بالبلل.

النوافذ مسدلة.

لا أحد معتاد أن ينظر بأذنه إلى المطر من نافذة.

أصابع برقَة الندى تنقر على الزجاج.

هل مرت جنازة خفيًة؟

الموت هنا عيب،

أو ربما هو عورة.

لا يجب أن يزعج من مات من لم يموتوا بموكبه.
كلٌ يحمل موته على عنقه.

لو كنت إدوارد هوبر لطليت حائط هذا المنظر بمربع شمس.
تكاد الشمس في لوحاته تكون الشيء الوحيد الحي بعد الصمت والوحدة.

لا أعرف إن كانت أمطرت يوم مات هوبر أو مشت في جنازته الشمس.

على أيه حال هو مرّ خفيةً، ومن دون أن يزعج أحدًا.

آدم

بدأ، كما يقولون، من الصفر.

لم يكن فنانًا في الفن، لكنْ في حياته كما أرادها.

طارد بيكاسو، ماتيس، براك، جياكوميتي، روتكو، ليجيه، إرنست، كلى، ميرو... ليقتني أعمالهم.

خلّدته الفوتوغرافيا جنبهم في مراسمهم.

أنشأ متحفًا رقيق البناء والخطوط وسط جنة خضراء، يحمل اسمه: بايلار.

في أسفاره، ورغم الثراء، كان ينزل فنادق الدرجة الثالثة.

عنده حق، لم التبذير وفي العالم من لا يجد الرغيف؟

رأيته مرة على العشب جنب زوجته: آدم وحواء.

ماتت هي قبل شهور وتركته ينزلق في الثمانين على كرسي له عجل.

ولأنه لم ينجب لا قابيل ولا هابيل، وهب للمدينة جنته - المتحف.

يستعد الآن لمقابلة الرب، عاريًا ونحيفًا بوجهٍ ملأته الحفر والأخاديد، كتماثيل جياكوميتي التي أفنى عمره معها وفيها.

هل تكون خطيئته أمام الله أنه آمن بالفن وحده؟

حقــل

الحقول تسكن في أبديَّة صمتها، عرائها. الأم التراب.
في الظهيرات تعبرها ظلال السحاب كجيشٍ من خيالات المآتة.

وفي الليل تلمسها النجوم، نور هلال أو قمر مكتمل.

على هذه الامتدادات الطاهرة، يحاك الغدر.

يتسلل القاتل.

يسيل الدم.

يشهق القتيل.

يذوب السر في الملح.

ويحدث أن تتشرب رفات ميت استثنائي:

قديس أو لص أو مجنون... قُبر بعيدًا عن مدن الموتى.

المدن أيضا، بأحيائها والأموات، تشربها الحقول على مهل.

العجيب هو هذه الزهرة على الحجر.

ذكّرتني بصوت محمود درويش يتلو:

"على هذه الأرض ما يستحق الحياة"

هو الذي أرضه معجونة بدم هابيل.

ظــل

ظلي على الرصيف مثقوب بليلة من الألم.

شفاف حتى لا يكاد يبين، رغم ارتمائه من شمس كالنحاس.

هل يفيض الألم من ثقبه اللحمي ليفرد في العين شاشة بيضاء؟

الشجر والنهر وحجارة البيوت والنور والوجوه تنعكس على الشاشة كأبهى ما تكون الأشياء عليه. كأن القبح انسحب من العالم.

هل الألم مصدر للجمال بينما هو غير جميل؟

الألم شيء لا معنى له ولا مبرر.

عبث.

"الألم قممنا العالية"

قال نوفاليس.

صبـــاح

هذا الصباح ترسٌ خرج عن ماكينة الوقت. مكانه الغيم المقلوب في السماء.

أذهب إلى مكتب البريد أتحرى عن خطاب يصل بينما أرحل أو أكون رحلت. هكذا عادة الحياة:
وصول متأخر ولو دقيقة. كما قطار أغلق بابه ويتحرك، تاركًا إياك وفراغ الرصيف.
هذه العجلات التي تنهب المسافاتِ وتسحق الوقت، ترمي على رصيفك كفنًا غير مرئي تجرّه وراءك كمن رفضته امرأة.

تصبح، ولو للحظة، ترسًا خرج عن ماكينة الوقت، مكانك الغيم المقلوب في قبة الدماغ.

هذه اللحظة هي البيدق الذي يحدد سلفًا صباحات من ينتظرونك،
وربما من لا ينتظرونك أيضًا.

غيمة

الغيمة تمساح فاغر فاه، حجب شمسًا آفلة ويزحف اتجاه النهر.

فكّه السفلي يترهّل، يتبدد. يتمدد جسمه كلما التهم كائنات البخار الصغيرة الزاحفة جنبه.

التهمهم جميعًا حتى أصبح جلدًا هائلًا، كحيوان اختصر جميع كائنات جنسه.

ساعةً ويعود التمساح إلى النهر في صورة مطر.

يحلو للغيم، أحيانًا، أن يفكر في التضاريس التي يعبرها: يأخذ شكل حوت أو تمساح أو سفينة، في مجال بحر أو بحيرة أو نهر.

يتدرّج كقطيع خرفان فوق السهل والمنحدر.

أو، حين يراعي الزمن،

يبدو على شكل بيانو أو نهود أو جنازة ...

الغيمة، رغم أنها تَبدّد، هي تجسيد التحوّل والصيرورة:

من ماء إلى عشب إلى لحم إلى تراب إلى بخار إلى نهر.

دائرة فاغرة فاها،

كحيوان يختصر كل الكائنات في جلد ثقيل،

لكنه هشّ يتبدد.

بقعـــة

بقعة اللون التي اندلقت من أنبوب روحي وأنا أغادر مرسمي، كان يمكن، بريشة رسام واقعي، أن تصير جبينًا هادئًا أو خرزة في صدر أو عينًا غائبة في مائها...

وكان يمكن، لو سمح لي الوقت، أن تصير، بفرشاتي، حقلًا من الرمادي تحكمه هندسة خفية، أو منحنىً بين فراغين، أو حتى فراغًا.

لكنها اندلقت في المكان وبقيت: بقعةً.

أنا لم أُرد. هي لم تُرد.

الصدفة أرادت؟

هكذا الكائن،

يندلق من رحم صدفة،

يدلق بدوره صدفةً - بقعةً، تحتاج يومًا من يزيلها،

إن لم تمتلك هي إرادة أن تزيل نفسها بنفسها.

حجاب

هذا البلد يتنفس الفساد كما يجتر النفايات ويلوكها.

نفايات كل شيء:

الدين، الأخلاق، الأفكار، الفن، الحضيض...

وصل إلى القاهرة، ولأول مرة في زياراته وطنه، بشعور المنفصل. كأن بينه وما يدور حجاب، إلى حد أن فكّر أنْ والله لو تنقّب الرجال وتعرّت المحجبات في الشارع، لن تهتز شعرة في رأسي.

لكم دينكم ولي دين.

ما جئت لأخوض في وحلكم، بل لأنظر ما لا تنظرون:

درجة النور في الأثير،

الشمس على أديم هذه الأرض،

والصحراء، حيث الرب ذائب في العدم.

أما الواقع، ذلك البرص المزمن، فقد اهترأ وسُلب، جُوِّع ونُهِب، ديس بالحذاء وليط به، غُيِّب إلا عن غرائزه الأكثر وحشيَّة وخفاءً، تحجَّب وتعهَّر، في نفس واحد.

في نفس واحد قالا، هو وصديقته وهما يشربان:

إنها مرحلة وسوف تغور. هكذا التاريخ:

من أسفل إلى أعلى، والعكس.

قال: لكن ليس في حياتنا.

قالت: لا يهم.

سخـــام

لن يقول جديدا حين يقول إن النصوص: الفن والشعر والأدب... كما كل شيء في هذه الدنيا، هي أشياء عابرة، تقطع قوس مسافتها في الزمن وتصير أثرا، خربشة على حجر التاريخ. هذا طبيعي وصحي أيضا.

لكن غير الطبيعي والمَرضي، أن يُلاك نص ما في فم الواقع على مدار القرون والأزمنة باسم المقدس.

"هل على الأرض ما هو مقدس وما هو غير مقدس"

يتساءل بورخيس في تعجب.

واقع وطنه مصر، يمضغ لبانة المقدس التي اتسخت بأفواه

أربعة عشر قرنًا أدرد.

إلى متى وإلى أين؟

وياليتها مرنة هذه اللبانة:

إنها تشبه الكاوتشوك الأسود، أو القار، يسيل يغطي يكتم

كل شيء:

الأصوات، الوجوه، العقول، الأرواح، الأجسام...

سخام.

قمـــر

القمر الذي التمع في دماغي وأنا أغوص في النوم، أسال فضته والغبطة في أعضائي وهي تغرق.

لا بد أنه قطع آلافًا من هكتارات الروح وصحاريها وقبورها، قبل أن ينبثق فجأة هكذا.

جهات مجهولة، آفاق وعتمات، أحملها وأسير بها.

لا بوصلة للوصول إليها.

لا شمال ولا جنوب.

لا شرق ولا غرب.

انبثاق فجائي لقمر غريب، يسكب فضته والغبطة، لحظة الغرق في الموت اليومي الصغير الذي النوم اسمه.

ماذا عن الغرق في النوم الكبير؟

شمس أم عتمة؟

صـــورة

نمل جائع، هزيل، خامل، مريض، مداس، مغبر، على شفا هاوية.

وملكة متخمة، منتفخة، متقيحة، على شفا هاوية.

وجحر متداع على شفا هاوية.

لا النمل، رغم الخوف، يبالي بملكته، ولا الملكة تذكر أصلًا أن لها نملًا وجحرًا.

هذه صورة بلده.

ادخلوها بسلامٍ آمنين.

يقظـة

يغمرني الجفاف زمنًا.

أتحرك، رغم الحضور، في الغياب. كأني نائم والواقع حلم.

أروح أجيء أسمع أتكلم أصمت أشرد أتجهم أتألم أبتسم في الوجوه أشيح البصر عن المناظر أنام ولا أحلم (حين يكون الواقع هو الحلم تنام الأحلام).

أمشي في القيظ غير آبهٍ به أستحم في العرق أتجفف في النسمات أغوص في الزحام.. في الصخب.. في فقر الشعب.. في أمراضه.. في جهله لا يمسّني سوء، كشعرة من عجين.

أمشي حتى نخاع هيكلي فتبين مني الروح وينبلج رخام رؤيتي ترن عليه كما الفضة مقاطع أفكاري أو أفكار مقاطعي.

أصبح فوهة اليقظة.

اليقظة التي، في فصل تالٍ، سوف أراها نوعًا من سبات، أو حلمًا داخل حلم.

حدبـــة

مر الأحدب، ونبح الكلب الواقف وسط الشارع.

المسافة بين صدر الأحدب المنكفئ على الأرض وبين الأرض، كيس غير مرئي يتسع بالكاد لكومة عظامه.

نباح الكلب قياس صوتي لمسافات عقله، وحدته، مخاوفه.

صمتي على المقهى يرقب.

الوجود مرمي على ظهري حدبةً تصرّ فيها العظام والأصوات والمسافات.

ليس صمتي باراميتر لأقيس به حدبة هذه اللحظة، المبعثرة كعقل كلب.

بحّة

حضرتُ ياسين التهامي ليلة أمس. شاخ. لكن صوته، كعمامته والجلباب، لم يشخ.

كلمات ابن الفارض والسهروردي والحلاج والجبلي ورابعة العدويّة لا تعنيني. يهمني صوته. بحّته بالأحرى.

كلمات هؤلاء تموج في حبال صوته كطوفان يجرف الأرض.

صوت التهامي أرضي، بل هو أرض.

رنّته، أو لمعته، من معدن غير المعادن التي نعرفها، لكنه خارج من الأرض. صوته امتلاء وفحيح.

الهيكل الذي يخرج الصوت منه فيه شيء من الكوبرا.

كوبرا على الخشبة تحت سماء مصر القديمة ومن ورائه مئذنة ابن العاص تبدو قزمًا في يد الزمن.

بين المئذنة وبين المنشد، مسافةً، ألف متر تقريبًا.

وبينها وبينه، زمنًا، أكثر من ألف عام.

صوت ياسين يحمل تراب وغبار وتأوهات وأحلام السنين الألف التي أنجبته وجهّزته.

لكن بحّة صوته حين تنفلت منه الـ آه، تروح خلف الزمن والحساب.

إنها عواء صوت وجد نفسه على كوكب لا قرار فيه ولا جواب.

ينادي فيرتد إليه الصدى فيظن لسذاجته أن هناك مجيبًا فيلوّن مناجاته بمقامات العشق فينخسه العدم في إشراقاته فيصّاعد حتى البحة فيغيب في تلاشيات جمالها فيظن أن الحجاب انكشف فيعود ينادي...

هل كان لصوت التهامي أن يفرد لآلئه لولا هذه المتاهة المنتصبة عليها مئذنة كشاهد قبر؟

لــــون

المدينة فم أهتم.

أمشي في الشوارع المشروخة بالزمن.

العمائر منكسرة عيونها.

متاهة من أزقة.

طوفان من وجوه محفورة من صلصال البؤس.

الشمس، واللغط.

ودودة الدين تمص في جثة الواقع.

والرب هلام مصروخ به.

وأنا على قدمين،

ممسوس بسحر البياض،

بلذة التعب.

متوضئ بذاتي،

خفيف،

مكتفٍ،

لا أُمسّ،

مطأطئ الخطو،

بإرث من رخام البساطة وصخور الكبرياء،

أتدحرج في أسطورة الراهن.

أهيئ نفسي، أو نفسي تهيئني لانبثاق الشكل وقبضِ المعاني.

أدخل في حقل من فتات الفكر وقمح التأمل،

أنا من يهزّه ضمير التراب.

ظلي على الأرض المداسة يسيل عليه في لحظة كهرمان الروح.

انسكاب أعرف أنه عابر،

كما ظلي،

كما حيِّزي الذي،

سوف يدهنه غيابي

بلون كالغبار.

بـــذرة

لا شيء عبثي كالأحلام ولا حقيقي مثلها

النوم أرضها المحروثة التي لا تموت فيها نبتة ولو كانت

بتفاهة الزغب.

إنها عدسة زووم الأحشاء.

أحشاء الدماغ، الضمير، الروح، الطريق، المآل...

صورة للقيامة.

شهـــادة

رحت أستخرج شهادة ميلاد،

المكان كان أشبه بتكيَّة دراويش، ولكي يجد الرجل بياناتي

أخذ يقلّب بعصًا رفيعة في صندوق مليء بالرمل.

مع كل حركة من العصا تخرج من الصندوق أصوات

ملايين الأطفال المولودين حديثا.

بعد ساعة من الانتظار، خرجت بالشهادة المعتمدة كونيا

من ذلك المكان العجيب.

يـــوم

بدأ يومي ظهرًا بدَرج السلطان حسن وسور ابن طولون المهيب.

كلما مررت بحجارة حوائطهما لا تنجو حنجرتي من غصة على حاضر قزم عقيم.

خراب يتآكل.

مشيت طويلا بلا بوصلة في أزقة النائمين أعالج السأم وأنظّف عن ذهني بقعًا افتراضيَّة ربما كانت أو مخافة أن تكون.

سطر، هو اقتباس، في قصيدة عن نيتشه، قرأتها وأنا أستحضر النوم لدغني كحيَّة:

."الخراب يكبر في كل مكان والويل لمن خرابه في الداخل"

إنه القلب الذي تصبّ فيه أوردة القصيدة وشرايينها، كما الأزقة التي قادتني إلى بياض ليلتي.

وجدت مفتاح يومي الضائع.

كلمة السر.

صحـــراء

كان عليه أن ينتشله من حيز النسيان.

اعتكف في الصحراء متفحصًا صور الأفاق الصخريَّة التي نحتها في لوحاته. حياته.

كان قد نحت وجوده في الصخر حتى قبل أن يجرفه الرسم إلى لمس حصى البدايات والسؤال.

صحراء وليدة.

كهوف من زلال صخري.

افاق من شاشات النفس التي لا تُمسك.

عما كان يبحث، هو الذي عرف أن لا ثمة شيئًا أو جوابًا؟

المدينة خلف الصحراء زلزلها الغضب.

غضب تصاعدت طبقاته في رفوف التاريخ حتى سقط كأضابير متربة على أعناق صانعيه.

هو نفس الغضب، وهي نفس المدينة، اللذان طردا الفنان قبل نصف قرن إلى صحرائه الخاصة.
منفاه الخارجي كما كان الداخلي.
مزابل كثيرة امتلأت بمتبجحي الفن ومدّعيه. جرفت رملَهم سيول الوقت إلى غربال التاريخ فتلاشوا في الثقوب.
مزابل أخرى تنتظر.
لكن للنسيان ذاكرة أحياناً، أو لا بد أن يكون له ذاكرة.

ما بقي من صخرة الفنان بضع لوحات بآفاق من خرس صخري، يتأملها آخرُ على طاولة ومصباح وصمت صحراء، بينما أضابير الغضب التاريخي تهوي على رقاب صانعيه.

أفق وليد يتشكل خلف الآفاق المرسومة.

هل كان يكتب عن هذا المنسي الصلب، أم عن ذاته هو؟
هل كان ينتشله هو،
أم كان ينتشل نفسه من نسيان مفترض؟

سقــوط

لم يفِض الميدان بالناس بل بالغضب.

والغاز لم يسيّل الدموع بل أسال الكراهية.

الدموع يغسلها البصل،

أما الدم فله قيامة.

قال الشعب "يسقط" فاهتز القصر وترنح الصنم.

حانت ساعة عض الأصابع، حزم حقيبة النجاة المزيفة،

السقوط، فالقيامة:

وقف الصنم عاريا في الحساب، والشعب كان الرب.

فرصـــة

كان بيده أن يكون عظيما لو أراد، لكنه أضاع الفرصة.

ثلاثون عامًا وهو يضيعها.

الصدفة أتت به على رأس الشعب فنال من فقر الأخير

آخر ما في ثقوب جيبه من كرامة.

ساطه بالأكاذيب، حقنه بالجهل، غذّاه بالمرض وأشعل فيه

كبريت الفتن حتى حصد ما غرس:

ركله الشعب بالحذاء.

ثلاثون عاما في دماغه الآن هي لحظة عابرة،

عليه أن يبحث في جزيئاتها عن أرض بحجم الحذاء الذي

رفعه عليه الشعب يقف عليها.

أنّى له أن يجد حيزه من الأبدية في ركام من هول كان يظن أنه عظمته؟

إنه في متاهته لم ير بعد التفاصيل.

ربما فقط في لحظة موته يرى مثلا المرأة الجائعة التي سلبها.

لن يكون لديه الفرصة ليرد إليها الرغيف

و

"ليس للكفن جيوب".

تقـاطـع

شارع الثلج هذا يوازي العدم.

ظلال بيوته مزولة تمسح رخام الفراغ بعصا الزمن المنخورة.

الشمس هنا، رغم بياضها، تزحف بنفس كسلها القديم على حائط الذاكرة التي، هي أسنان ماكينة هائلة، معقدة ومتداخلة، إلى درجة أن يتقاطع هذا الشارع الأبيض مع شارع آخر، كالح اللون، مزدحم وصاخب، ناسه من تراب وشمسه من ذهب.

بين الشارعين عمر شريد.

في شارع الشمس ثار الغبار وأسقط صنما من حجر، تهشم وصار ترابًا.

لكن متورطين في الوحل يحاولون الآن سرقة الهواء وأن
يطفئوا الشمس.

هنا، من شرفتي الصغيرة، حيث العصافير ساعتي
الداخليَّة،
يأتيني اللغط.

ركـــام

لا بد أنه نهر ستيكس ذاك الذي مر أمامي في الشرفة بين سيجارة وغيمة داكنة.

ممر بين الذاكرة والخيال حمل ركام أربعين عاما من عمر حدقة:

صورا من مدن وشعوب وأشلاء حوادث وهياكل أزمنة سكنت إلى الأبد في غبارها.

آخر هذا التيار صورة شعب يجر في التراب جيفة كانت تألهت عليه.

الجيفة تحفر في التراب مجرى دمويًا يتشعب ويتقيح
تحت أرجل الراقصين.

لن يجدي المطر الذي يغسل شرفتي الآن شيئا،
إنه فقط آخر صورة في المنظر.

زغـــب

اختفى الحائط اللبني الذي اختصر طفولتي بالمسار الصارم لشمس عمياء.

الآن ينتصب مكانه آخر من الإسمنت والطوب الأحمر.

الشوارع أيضا أضحت كثعابين غيرت جلودها والتهمت ما حولها.

وحدها الشمس هي ذاتها، لم تتغير إرادتها.

ذلك الحيز البعيد، الغائر في صمم الأصوات والصور، لم يعد سوى زغب في خيط الذاكرة.

يدور مغزل خفي فتنبجس قيامة من شمس وغبار.

ممــر

بالأحرى يفصل بين حيزين في الدماغ، هذا الممر الطويل

بين مقابر القرية:

حيز المنشأ، وحيز الغربة.

في الأول هياكل من رحلوا، وفي الآخر ما يشبه العدم.

شجرة الكافور في وسطه مازال يطوّحها هواء ما في داخلي،

وأشكال الظلال بين شواهده ومدرجاته المتآكلة مازالت

تسحبها شمس كسولة في ركن ما خلف نهاراتي.

آيات من الصمت الترابي على بقايا من طلاء الجير.

يُمتص صوت الحاضر، كلما انفتح هذا الممر في ظهيرة

رأسي.

حافلة

الرجل الذي مات في حادث على الطريق السريع، لم أر منه سوى ذراعيه متدليين إلى الأرض في استسلام كمن وصل ميتا إلى قاع محيط.

أُخذت الحياة منه في لحظةٍ بسرعةٍ تفتُّت زجاج الحافلة.

صمته الثقيل سلخ الهواء إلى درجة أن أصوات المتفرجين المهمهة بألفاظ الأسى والرحمة بدت لي خارجةً من بطون أموات ماتوا في زمن بعيد.

انتبهت بعد دقائق إلى أن صوت أم كلثوم كان ما يزال يصدح من خلال فلاشة الجهاز داخل حافلتنا التي توقفت أمام هذا الموت والصفيح.

فوضى

جاءوا من عزاء صديقهم الكاتب إلى المقهى.

يبدو أن الميت لم يكن عزيزا جدا، لكنه التاريخ المشترك الذي يلضم فوضى المواقف في إبرة الذاكرة.

قال الأديب المحبوب بعد أن تلا فيضًا من نقائص الميت: "لكنْ، ما إن تلمس الشخصَ لن تستطيع أن تكرهه، مهما فعل تصبح صغاراته فكاهات ومناسبة للضحك".

ضحكوا حتى حين وصف أحدهم كيف مات في شهقة واحدة بعد كوب الحليب المسائي.

بعد ساعتين تركوا المكان لفوضى الكراسي التي تشبه فوضى ما بعد ثورة لا أحد يعلم إلى أين هي تمضي، ولا هو في أي أرض يموت.

المحتوى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496

لا بد أنه نهر ستيكس ذاك الذي مر أمامي في
الشرفة بين سيجارة وغيمة داكنة.
ممر بين الذاكرة والخيال حمل ركام أربعين عامًا من
عمر حدقة:
صورًا من مدن وشعوب وأشلاء حوادث وهياكل
أزمنة سكنت إلى الأبد في غبارها.
آخر هذا التيار صورة شعب يجر في التراب جيفة
كانت تألهت عليه.
الجيفة تحفر في التراب مجرى دمويًا يتشعب
ويتقيّح تحت أرجل الراقصين.

لن يجدي المطر الذي يغسل شرفتي الآن شيئًا،
إنه فقط آخر صورة في المنظر.



الثمن : جنيهان

www.gocp.gov.eg